

الازدواجية اللغوية في الواقع الجزائري مقارنة في الأسباب والنتائج والأفاق

DUALITY OF LANGUAGE IN ALGERIAN REALITY IS AN APPROACH
IN CAUSES, RESULTS AND PROSPECTS

د. عبد الحليم بن حجة

benhadjebahalim@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

تاريخ النشر: 2019/03/19

تاريخ القبول: 2019/01/20

تاريخ الإرسال: 2018/11/21

ملخص: تعد هذه الدراسة قراءة تحليلية لإشكالية ازدواجية اللغة في الثقافة الجزائرية، من حيث تحليل ملامستها ومظاهرها واستقراء أسبابها الفاعلة ومحاولة البحث عن حلول لها. ذلك أن واقع الممارسة النقدية في عالمنا العربي المعاصر يتطلب بناء وعي جديد للنظر في هذه الإشكالية ومحاولة معالجتها.

الكلمات المفتاحية: اللغة; الثقافة الجزائرية; ازدواجية; أسباب; نتائج.

ABSTRACT: This study is an analytical reading of the problem of double language in Algerian culture, in terms of analyzing its circumstances and manifestations, extrapolating its active causes and trying to find solutions to them. The reality of monetary practice in our modern Arab world requires the building of a new awareness to consider this problem and try to address it.

Keywords: Language; Algerian culture; bilingualism; Reasons; Results.

1. مقدمة:

يقال أن حضارة المجتمعات لا تنعكس في شيء مثلما تنعكس في اللغة، فهي وجه الفكر ومظهره إن بدت سليمة متماسكة دلّت على قوة متحدثيها وإن شابهها جانب من النقص تسببت في ضعف الملكات والمعاني وما يرتبط بها من علوم ومناهج، ولعل استنباط العرب قواعد لمجرى كلامهم يضبطون بها مخارج حروفهم ويفهمون من خلالها معاني النصوص والكلمات إنما خوفا منهم على فساد ألسنتهم بعدما خالطوا العجم وتغيرت سليقتهم اللغوية السليمة بما ألقى إليها من مخالقات المستعربين.

فرأس المفسدة اللغوية إذا تعدد اللغات واختلاطت العبارات بما يخالفها داخل المجتمع الواحد، وهو ما أدركته العرب قديما، وحذرت منه المجامع العلمية العربية والمجالس العليا التي نصبت نفسها لخدمة اللغة العربية، فليس من شيء أكثر قسوة كما يقول إرنست كسيرر: "من قيام الجماعة الإنسانية الموحدة من تنوع الكلام واختلاف اللغات"1، ويظهر ذلك جليا حينما نلاحظ تنوع نظرة المجتمعات التي تتكلم لغات مختلفة إلى الشيء الواحد.

من هنا يهمننا كثيرا أن نشير إلى مسألة في غاية الحساسية وهي إشكالية ازدواجية اللغة في الواقع الجزائري المعاصر، لإثارته للنظرة وتساكنها ضمن العضلات المرضية الراهنة التي تستوجب وعيا متيقظا بتأثيرها على حضارات الشعوب والذي نراه سلبي أكثر منه إيجابي، خصوصا مع عدم تقدير الكثير لحجم هذه المعضلة حق التقدير في مقابل الهيمنة اللغوية والاستلاب الثقافي الممارسين علينا من طرف الدول القوية، مما يدعونا إلى التساؤل:

- ما هي الأسباب التي ساهمت في ازدواجية اللغة داخل الثقافة الجزائرية؟

- وما انعكاسات هذه الازدواجية اللغوية على المجتمع الجزائري؟

- وكيف السبيل للخروج من هذه المعضلة الحضارية؟

يذكر لنا مالك بن نبي حادثة لا ندري كيف نصنّفها، هل نقول عنها أنها طريفة أم محزنة ويتعلق الأمر بحوار جرى بينه وبين أحد موظفي البريد، هذا الحوار كما يصف دفعه إلى كتابة مقال عنونه بـ: "اللغة والثقافة" يقول فيه: "كنت في أحد مكاتب البريد أتحدث إلى الموظف الجالس وراء النافذة باللغة العربية وكان في كل مرة (يجيبني) باللغة الفرنسية، لن أقول هنا كل انطباعاتي حول هذا الحوار أمام نافذة في إدارة رسمية (...). ثم يستطرد قائلا: وقد بدا لي الأمر أشد شذوذا لأن هذا الرجل الذي كان يصمّ أذني وراء نافذته بفرنسيته الركيكة، كان قد توجه بالحديث لتوّه إلى أحد زملائه ببضع كلمات عربية سليمة"².

من المؤكد أن الأمر الشاذ الذي يشير إليه مالك بن نبي، والذي أزعجه هو المفارقة التي عكسها تصرف موظف البريد داخل إدارة جزائرية رسمية: وهي ازدواجية لسانه ومناقضته المتعمدة لمرسوم إدخال اللغة العربية في الإدارات الرسمية، والأمر في الحقيقة لا يتعلق هنا بتصرف شخصي أو طريقة في التعامل وإنما المسألة أعقد من ذلك، إنه يطرح إشكالية ازدواجية اللغة داخل الثقافة الجزائرية، وما جلبته من انشقاق وفوضى مفاهيمية مما ساهم في تأزّم الثقافة الجزائرية، ذلك أن الأمن الثقافي والحفاظ على الهوية الوطنية لا يتوقف على حفظ الأمن الغذائي أو السياسي أو العسكري فقط، بل لا بد أن نظيف إلى هذه اللائحة الأمن اللساني ووحدة اللغة.

من جهة أخرى - وهو المهم - لأن اللغة تؤلف الجزء المهم من ثقافة المجتمعات ودورها جوهري في تشكيل مقوّمات وجودها، إذ بها يتحقق التواصل الاجتماعي وتحفظ ذاكرة الشعوب وتمارس من خلالها الطقوس والعادات، فضلا عن رموزها المستخدمة في العلوم والفنون ونقل المعارف كما أنها كثيرا ما استعملت وتستعمل في توحيد القوميات مادامت أنها تدخل في تركيب الوعي لدى الأفراد وتشكيله مما يجعلها أداة لتقارب الأفكار والتصورات فما بالنا إذا كانت لغة المجتمع واحدة، لكن أن يحدث العكس وتتحول اللغة إلى أداة مدمرة لثقافة المجتمع، كأن تأخذ شكلا مزدوجا وتفرض من الاختلاف ما تفرض فذلك ما نسميه بالأثر السلبي للغة على الثقافة، خصوصا إذا كانت اللغة المقصودة هنا هي اللغة العربية فهي على خلاف اللغات الأخرى مكون حقيقي للثقافة العربية.

المعروف أن الثقافة العربية قبل عصر التدوين أي قبل تدوين النحو العربي وقبل تقنين وتقييد اللغة العربية، كانت غير مُبَوَّبة أو كما قال عنها محمد عابد الجابري: لا يمكن الحديث عنها كثقافة منظومية أو كثقافة لها مفاصل معينة، وكل ما كان يوجد دخلها آنذاك هو جملة أشعار في شكل شفوي ولكنها بدأت تنتظم في قوالب فكرية أي كمنظومة فكرية عامة منذ عصر التدوين، فمن خلال إسهامات علماء النحو تحولت من ثقافة شفوية إلى ثقافة مكتوبة³.

من هنا يظهر الدور البارز للغة العربية على الثقافة العربية التي أسهمت في تشكيلها وتطوير بنيتها، وهو ما يمكن اعتباره تميز في وجه العلاقة بين اللغة والثقافة العربيتين، على عكس ما هو حاصل في المجتمعات الأخرى حيث نلاحظ أن الكثير من اللغات استمدت نسق رموزها من مكونات ثقافتها المحلية.

ليس هذا فقط بل ونجد اللغة العربية هي كذلك من قَنَنت الفكر العربي أيضا ووطورت علومه (أدب، تفسير، علم أصول الفقه)، سواء من خلال ضبط اللسان العربي في حركته أو في توجيه الفكر في استنباطه للأحكام الشرعية، يقول محمد عابد الجابري: "إن أية قاعدة نحوية مهما كانت إذا طُوِّرت أو حُذفت أو عُدلت، لا بد أن ينعكس أثر هذا التعديل أو هذا التطوير على الفقه، على الشعر، على الأدب، على النقد الأدبي، على مجمل الثقافة العربية، ذلك أن النحول ليس شيئا معزولا في الثقافة العربية بل هو المؤسس، هو ذلك الرابط بين جملة عناصر الثقافة العربية"⁴.

2. ضبط المفاهيم:

قبل الحديث عن إشكالية ازدواجية اللغة وأثارها على الثقافة الجزائرية لا بد من ضبط بعض المفاهيم الرئيسة وتحديد معناها.

2. 1 - مفهوم ازدواجية اللغة (Le biliguisme): وتعني "وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما، أو جماعة ما في أن واحد"⁵، ومثال ذلك تداول اللغة العربية والفرنسية داخل اللسان المغربي العربي، حتى أن هناك من يعتبر الحالة العربية من أكثر الحالات المعبرة عن التعددية اللغوية وذلك بسبب وجود مستويين واضحين فيها، وهما العربية والفرنسية من جهة والعامية والفصحى من جهة أخرى، رغم أن هناك من يرفض إطلاق مصطلح الازدواجية اللغوية على اللسان الناطق بالفصحى والعامية، "ذلك أن العامية والفصحى فصيلتان من لغة واحدة، والفرق بينهما فرعي لا جذري، وعليه فالازدواجية الحققة لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين كما بين الفرنسية والعربية أو الألمانية والتركية"⁶.

2. 2 - مفهوم الثنائية اللغوية (La diglossie): وتعني تكلم الناس في البلد الواحد لغتين مختلفتين الأولى رسمية تستخدم في المجالات الرسمية كالتيعليم والإعلام والبرلمان وكتابة القوانين، والثانية محلية تستخدمها مجموعة من المواطنين للتواصل فيما بينها، في حين تستخدم اللغة السائدة للتواصل مع الآخرين⁷.

3. عوامل ازدواجية اللغة في الثقافة الجزائرية:

قد تتعدد الأسباب المساهمة في ازدواجية اللغة داخل الثقافة الجزائرية، ولكن نعتقد أن أهمها يتحدد في العوامل الآتية:

3. 1 - العامل التاريخي: ويتمثل أساسا في الاستعمار الفرنسي بأشكاله المختلفة يقول مالك بن نبي: "لقد غرس العصر الاستعماري فيما غرس من الظواهر المتصلة بالهياكل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية في البلاد المستعمرة ظاهرة خاصة هي ازدواجية اللغة، التي تتعلق بيناه الثقافية والعقلية، وبأفكاره"⁸.

إن فعل الغرس الذي يمارسه المستعمر في البلاد التي يحتلها بدون شك لا يتم في أرض جرداء قاحلة حتى نعتبر فعله هذا إعمارا وبناءا، بل يمارسه في أرض مخضرة غنية بغرسها الأصيل حتى تتعدد مغروساتها فلا نعرف الأصيل من الهجين، خصوصا وأن البذور هذه المرة مختلفة وقد جاءت من أرض مغايرة، والغرض من ذلك فرض التعددية والنسبية والازدواجية بدل الوحدة اللغوية حتى تسهل عملية التجزئة والتفتيت ومن ثم ترشيد المجتمعات وتحكم فيها، ودليل ذلك أن أول ما يقوم به المستعمر ضرب لغة الدولة المحتلة، ولنتذكر ما فعله الاستعمار الفرنسي عندما منع اللغة العربية في المساجد والكتاتيب وأجبر الجزائريين على تعلم اللغة

الفرنسية، ولم يكتف بهذا فقط بل كان في كل مرة ينوع في أساليبه، فقد دعا إلى التخلي عن اللغة العربية الفصحى واستبدالها بلغات أخرى (الفرنسية خصوصا) أكثر سهولة بما يتناسب ومتطلبات العصر، كما "منع الحج، على اعتبار أن الحجاج يحتكون بالعرب الذين يحملون اللغة العربية أضف إلى ذلك ما تعرضت له الصحف المعربة من غلق وملاحقة أصحابها وهذا كله يدخل في إطار التطهير النهائي وتذويب الكيان الثقافي الجزائري في كيان فرنسا وإضعاف الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية ومقوماتها الدينية"⁹.

هذا ويمكن القول أن فعل الهيمنة اللغوية الممارس من طرف الدول القوية لم ينته بعد ومازال سببا مباشرا في خلق ازدواجية والثلاثية والتعددية اللغوية، وهو واضح في اتجاه اللغات الكبرى نحو توسيع دائرة نفوذها على حساب اللغات الصغرى من خلال تشجيع شباب الدول الضعيفة على تكلم لغتها وبناء المراكز اللغوية لتعليمها ونشرها، والأخطر من ذلك هو العمل على تقوية اللهجات المحلية وتعدد الألسنية داخل الدول الضعيفة، بدعوى المحافظة على لغات الأقليات وهي كلها أساليب تدميرية الغرض منها تذكية الصراعات اللغوية والتي غالبا ما يترتب عنها تصدع ثقافي واجتماعي مهلك.

3 - 2- العامل السياسي: رغم المساعي الحثيثة التي بذلت بعد الاستقلال، من سن القوانين والمواثيق بوحدة اللسان العربي ورفع شعارات التعريب، إلا أن هذه المساعي لم تحقق الهدف المنشود، والسبب في ذلك التذبذب السياسي والخلافات الزعموية التي لم تنته في هرم السلطة الحاكمة بحسب مذاهب الحكام الذين تداولوا على السلطة ومشاربهم الإيديولوجية، يقول مالك بن نبي: "منذ الاستقلال هناك فريقان في القمة متعارضان بكل معنى الكلمة، ومجتمعان متراكبان في القاعدة التي تمثل القاعدة الحقيقية في الجزائر"¹⁰.

إن غياب إرادة قوية وشاملة في ضل ازدياد وسائل الهيمنة الخارجية يوم بعد يوم أضعف من إمكانية تحقيق الوحدة اللغوية خصوصا بعد السنوات الأولى من الاستقلال، وجعل في مقابل ما كان منتظرا - ازدواجية اللغة اختيار مفروضا، وبدلا من توحيد الرأي والقرار لتوحيد اللسان الجزائري بقيت نظرة الدوائر الرسمية في اختلافها وتذبذبها السياسي تتراوح بين المرونة أحيانا والتشدد أحيانا أخرى في تطبيق قانون التعريب ودليل ذلك: أمر اللغة الفرنسية في البرنامج المدرسي الجزائري والذي عرف اضطرابا كبيرا، حيث أدرجت عدة سنوات بالنسبة لتلاميذ السنة الثالثة ابتدائي، ثم تم التراجع عنها إلى مستوى السنة الرابعة أساسي، ثم تم التراجع عن تدريسها بعد ما دامت التجربة ستة سنوات، ليعود النظام التعليمي إلى اللغة الفرنسية لمستوى الثالثة، ليعاد النظر فيها وتدرج في السنة الثالثة من جديد، وهو الأمر المعمول به حاليا، ولعل المتتبع لهذا الإدراج والتراجع يدرك بسهولة مدى ضعف وتذبذب الجهاز السياسي في تعامله مع قضية اللغة الثانية، ويكشف كذلك عن عدم امتلاكه لتخطيط محكم واضح المعالم يراعي هوية المجتمع الجزائري ومقومات وجوده.

ويمكن أن نشير كذلك إلى بعض المشاهد الأخرى التي تؤكد عدم جدية القرار السياسي في تعامله مع مشكلة ازدواجية اللغة داخل الثقافة الجزائرية "ما حدث لبعض الأطراف الجزائرية الفاعلة، بسبب تفضيلهم للغة الفرنسية عن اللغة العربية في عقد الاتفاقيات وإبرام العقود، مثل ما حصل مع وفد ألماني

رفيع المستوى امتنع أن يوقع على اتفاقية مع أحد الأطراف الجزائرية لصياغتها باللغة الفرنسية، واشترط الوفد لكي يتم ذلك أن تعاد صياغتها باللغة العربية فكان لهم ما أرادوا، والسيناريو نفسه حدث مع وفد برلماني موريتاني عندما رفض رفضا قاطعا أن يوقع اتفاقية مكتوبة باللغة الفرنسية مع شركة (سونا طراك) الجزائرية، يقضي بموجبه استغلال هذه الأخيرة حقول نفط موريتانية، إلا بعد أن رضخت هذه الشركة للأمر الواقع وأعادت صياغتها باللغة العربية، اللغة الرسمية للجزائر المستقلة¹¹، ومن دون شك أن الدروس والعبر كثيرة ولكن الاعتبار غائبا بسبب غياب الإرادة السياسية القوية والصرامة القانونية .

3 - 3. العامل الاجتماعي: معروف أنه من مميزات الظاهرة الاجتماعية أنها ظاهرة قهرية تفرض نوعا من الإلزام (الاجتماعي)، على الأفراد بحيث إذا ما حاولوا الخروج عنها سرعان ما يتلقون رد فعل مضاد من المجتمع الذي يعيش فيه كالتهميش أو التهمك أو السخرية منهم، فكذلك ونتيجة لدور العاملين السابقين (العامل التاريخي والسياسي)، وجد الجزائريون أنفسهم بعد سنوات من الاستقلال داخل إرث فرنسي ظاهر على اللسان الجزائري ووضع سياسي متذبذب وغير قادر على فرض رسمية اللغة العربية الفصحى، مما كرّس وضعاً تداوليا عاما بازدواجية اللغة، بل أصبح الغالب على اللسان الجزائري خصوصا في الإدارات الرسمية والجامعات والمؤسسات الاقتصادية والصناعية اللغة الفرنسية، والمفارقة هي أنه من بقي وفيًا للغة العربية ولم يمتلك ناصية اللغة الفرنسية التي أصبحت دليل صحة وتحضر وزينة لا دليل مرض، يجد نفسه يغرد خارج السرب ودليل ذلك أن الحصول على المناصب العليا والارتقاء في الوظائف لا يكون من نصيب الذين لا يحسنون تكلم اللغات الأجنبية وبالخصوص الفرنسية، مما ولد إحساسا عاما بأهمية اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية، "كشعور بعض الطلبة بالاعتزاز عند استخدامهم للألفاظ الأجنبية لأنها لغة العلم والتقدم، بينما يرون في العربية لغة الدول الضعيفة والمتخلفة"¹².

هذه بعض العوامل التي ساهمت في ازدواجية اللغة داخل الثقافة الجزائرية، وإن لم تكن جامعة، ولكننا نعتقد أنها جوهرية بالإضافة إلى أسباب أخرى، كالعوامل الاقتصادية والنفسية وغيرها من العوامل الأخرى.

4 - الازدواجية اللغوية وانعكاساتها على الثقافة الجزائرية:

عند الحديث عن الازدواجية اللغوية فمن المؤكد أنه من بين الأسئلة التي تطرح بقوة في هذا الموضوع، دورها على الثقافة (المحلية) إن كان إيجابيا أم سلبيا؟

يجيبنا مالك بن نبي قائلا: "ازدواجية اللغة ليست فقط مجرد مفجّر، بل هي أكثر من ذلك ديناميت قُذِف في العالم الثقافي وإذا كان لم ينسف كل شيء، فإن انفجاره أحدث أغرب الانشقاقات"¹³.

إن وصف مالك بن نبي ازدواجية اللغة بالمفجّر أو الديناميت حقيقة أكدها التاريخ، فإذا كانت القوميات الوطنية للكثير من دول العالم قد تأسست على وحدة اللغة، فمن غير المتوقع أن تؤدي الازدواجية اللغوية إلى وحدة الأمة وخيرها، ولعل الانشقاق الذي أشار إليه مالك بن نبي هو نتيجة حتمية واقعية من نتائج الازدواجية اللغوية الحاصلة في الثقافة الجزائرية، فقد انقسم المجتمع الجزائري منذ الاستعمار سواء على مستوى قيمته الحاكمة أو قاعدته الشعبية الواسعة إلى طائفتين إحداهما تتكلم اللغة العربية وتحاول مع ابن

باديس أن تستعيد اللسان العربي الإسلامي الأصيل والأخرى تتكلم اللغة الفرنسية كالمصالية والبربرية والتقدمية وتتطلع إلى تعميم المصطلح الأجنبي .

في كل الأحوال لم تجلب هذه ازدواجية اللغوية إلا الانشقاق والفوضى المفاهيمية، فالجزائر لم تعد مجتمعا واحدا موحدا في لغته ورؤيته الفكرية، بل أصبحت مجتمعين متراكبين، أحدهما يمثل البلاد في روحها التقليدية ويسعى إلى إرساء اللغة العربية الفصحى والثاني تقديمي مولع بحضارة الآخر ومتطلع بشغف إلى استعمال لغته، والنتيجة فشل الاتجاهين معا، "فالطائفة الأولى لم تنجح في إرساء اتصال بين الروح الجزائرية والتقاليد الأصيلية للسلف الصالح، لعدم وجود اتصال حقيقي لديها بنماذجها المثالية، والطائفة الثانية لم تستطع إرساء اتصال مع حضارة لعدم فهمها لروحها العملية"14.

ومن المنطقي جدا أن لا يتحقق النجاح لعدم تحقق التوافق بين نموذجين لغويين مختلفين لأن اللغة ليست نظاما جامدا من الألفاظ والرموز بل هي وجه التفكير وأداته، ومن هنا كما يقول مالك بن نبي: "فإن الأفكار المطبوعة للأولين والأفكار الموضوعية للآخرين، لا تستطيع التعايش في عالم ثقافي واحد"15.

لا تنتهي نتائج الازدواجية اللغوية عند هذا الحد بل أصبحت أداة تظليل وفوضى، بسبب فرضها لجهاز مفاهيمي دخيل زعزع النظام المفاهيمي الأصيل، فاختلط النسق اللغوي في التداولية الجزائرية على مستوى الألفاظ ولبنى، وبديل النظم حلت التراكيب الجاهزة يقول عبد الوهاب المسيري: "كثيرا من المصطلحات قد تكون مستقرة في سياقها التاريخي والحضاري وتفي بالغرض الذي صكت من أجله لدرجة معقولة، لكنها تصبح لا معنى لها تقريبا بل وتصبح أداة تظليل حينما تُنقل إلى سياق آخر"16، وهو ما حصل للسان الجزائري فبعدما كان الناس مثلا يسمون رجل الثورة بالمجاهد أصبحوا ينادونه بالجندي، ومرشد الثورة الذي يدعونه بالشيخ أُستبدل بعبارة ضابط أو كولونيل، واستمرت متتالية المصطلحات الجديدة التي أخذت تسوق أفكار وحمولات إيديولوجية مخالفة لتفكير وعادات الجزائريين، فالمصطلح المستورد من حضارة أخرى من المؤكد أنه يحمل وجهة نظر صاحبه خصوصا إذا كان صاحب هذا المصطلح يضع نفسه في المركز ويرتب التفاصيل حسبما يتفق ورؤيته، فماذا نقول إذا كنّا نعلم انه مخالف لنا في العقيدة والرؤية والتاريخ وبالأمس القريب احتلنا واجتهد كثيرا على طمس هويتنا ولغتنا، ومن مدخل اللغة ذاتها يفعل اليوم، فما بالنا إذا نحن قَصَرنا له طريق الفتح ورحنا نتكلم لغته ونستورد مصطلحاته بإرادتنا .

قد يعترض معترض من بعض المناصرين للغات الأجنبية عموما والفرنسية خصوصا بقوله: أنه لا ينبغي أن نبالغ في الأمر وننسى إيجابيات التعددية اللغوية.

لكن يمكن أن نجيب المعترض أن "تبني الفرد للغات الأجنبية، بحجة تحسين معرفته لهذه اللغة، وفي غياب وعي الانتماء يتحول التماهي عنده من دافعية أداتيه تتسم بالرغبة في اتخاذ اللغة الأجنبية وسيلة لتحقيق أهداف معينة، من تحسين الوضع المعرفي أو الوظيفي إلى دافعية اندماجية تمتاز بالرغبة في الاندماج في مجتمع تلك اللغة فتتحول الازدواجية اللغوية إلى ازدواجية ثقافية تنعكس في الفكر والسلوك، وهنا مكنم الخطورة"17.

كما أن هذه الازدواجية اللغوية كثيرا ما تستعمل كذريعة سياسية للضغط على دولة ما وإخضاعها للهيمنة والإمبريالية الخارجية من طرف أصحاب المصالح، إذ غالبا ما تتركب اللغة "لإذكاء نزعات قبلية وتثبيت هويات إقليمية كالباسكية في إسبانيا، والكردية في العراق وتركيا، والأمازيغيات في الجزائر والمغرب"18، إذا فالازدواجية اللغوية إن سلك فيها الازدواج مسلكا سياسيا أو إيديولوجيا بقصد معلوم وأهداف مرسومة تحول إلى مسخ ثقافي وأداة هيمنة.

ليس من شك أن اللغة الواحدة كثيرا ما تكون عامل انصهار وترابط وألفة واجتماع بين الأفراد الذين يتداولونها لأنها تمنحهم رؤية إدراكية متقاربة وتُسهل عملية التواصل بينهم، ومع ذلك فقد تتحول إلى عامل تفرقة واختلاف إذا ما تعددت داخل الثقافة الواحدة خصوصا إذا ما أُريد لها ذلك، حيث يجنح كل لسان إلى التمسك بلسانه "وتميل كل جماعة للتمسك بلغتها والدفاع عنها وعن كيانها ووجودها، وبذلك فإن العامل الذي كان يراد منه أو يفترض فيه أن يساعد على تجانس الثقافة يصبح هو نفسه مصدرا لأعمق الاختلافات والصراعات وسببا من أسباب التفرقة بين الناس"19.

5 - سبل تجاوز سلبيات الازدواجية اللغوية في الثقافة الجزائرية :

كيف يمكننا تجاوز هذه الازدواجية اللغوية السلبية في الثقافة الجزائرية؟

إن المسعى المطلوب في اعتقادنا للخروج من هذا المأزق هو:

- أولا: الاعتزاز بلغتنا العربية الفصحى، ولكن من جهة الاعتزاز بالإبداعي لا الاعتزاز المنغلق والمتشدد، ولا يكون ذلك إلا بالرجوع إلى المعجم العربي ومحاولة توليد مفاهيم ومصطلحات جديدة تتماشى وتطورات العلم، وقد يقول قائل: أن هذه العملية مستحيلة في ظل الضعف العلمي الذي نعاني منه؟ وكيف يحصل ذلك ونحن نستورد معارف ومنجزات غيرنا؟.

نعم قد تبدوا المهمة صعبة ومستحيلة، ولكن بدل تكلم لغة غيرنا والتحيز لها عن قصد أو دون قصد، وبدل نقل مصطلحات الغير بخيرها وشرها دون دراسة أو تحليل لتاريخها ومضمونها، أو القيام بتعريبها وترجمتها في أحسن الأحوال، بدل هذا كله فلنعتز بلغتنا (العربية الفصحى) ونتمسك بها بقوة، رمزا لوحدةنا وهويتنا وهذا ما فعله بضبط اليابانيون وهم في أحلك أيامهم عندما استسلموا في الحرب العالمية الثانية تحت وطأة القنابل الذرية للأمريكان، ففرض الأمريكيون عليهم شروطا مجحفة مثل تغير الدستور وحل الجيش ونزع السلاح... الخ، وقد قبل اليابانيون جميع تلك الشروط إلا شرطا واحدا وهو عدم التخلي عن لغتهم القومية في التعليم فكان لهم ذلك، وكانت اللغة اليابانية منطلق نهضتهم الجديدة20.

وإذا كان هناك من بُد لتكلم لغة الغير لضرورة علمية أو عملية، فلا مانع من ذلك بل من الواجب أن نحسن الأمر، بما لا يضر ثقافتنا وأبرز مثال نموذج الحضارة العربية الإسلامية التي كانت توظف لغات أجنبية مثل الفارسية لخدمة أغراض معينة ولم تؤثر عليها أبدا.

أما عن مسألة الترجمة لنقل المعارف والخبرات، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في هذا الشأن: "فلا ينبغي أن نترجم على الإطلاق، وإنما ننظر للظاهرة ذاتها سواء في بلادنا أو بلاد الآخر (...). وندرس المصطلح الغربي في سياقه الأصلي دراسة جيدة، ونعرف مدلولاته حق المعرفة، ثم نحاول توليد مصطلحات من داخل

المعجم العربي، والمصطلح الذي نأتي به سوف لا يكون ترجمة حرفية (أي نقلا دون اجتهاد للكلمة الأصلية)، وهذا لا يعني بالضرورة انغلاقا على الذات، وإنما انفتاحا على الآخر، بدلا من الخضوع له تماما أو رفضه تماما²¹.

- ثانيا: كذلك من شروط تجاوز سلبات ازدواجية اللغوية ضرورة قيام إرادة سياسية قوية تتجاوز انشقاقها الداخلي وتتبنى رؤية موحدة واضحة، فيزول انشقاق القاعدة بزوال خلافات قِمَّتِها، ويكون ذلك بتبني "تخطيط لغوي منظم وموجه، يرمي إلى تنمية الفصحى على حساب العاميات واللغة الأجنبية، ولا بد لهذا التخطيط أن ينتج سياسة لغوية تشتمل على جوانب لسانية وتربوية وإعلامية واجتماعية، مركّزها الاقتصاد على استخدام الفصحى في جميع مراحل التعليم ومستوياته"²²، وكذا ترسيم اللغة العربية في جميع المؤسسات الإدارية والاتفاقيات الدولية بنص قانوني صريح وواضح.

- ثالثا: يرى بعض علماء الاجتماع أن اعتماد الاتصال اللغوي وتفعيله، داخل المجتمع قد يكون أداة ناجحة لتجاوز مثل هذه المآزق، والاتصال اللغوي هو منهج جماعي يتم من خلال الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة والصورة، باعتبار أن الكلمة المنطوقة والمكتوبة والصورة - الأشكال الثلاثة القوية للاتصال الرمزي بين أفراد المجتمع²³، بحيث إذا ما فعلنا اللغة العربية الفصحى في السينما، وعلى شاشة التلفزيون وفي البرامج التربوية والمؤسسات الإدارية والثقافية، نكون قد حققنا وحدة لسانية معتبرة، ووجهنا لغة الجزائريين إلى ما يجمعهم ويقوي وحدتهم، وهنا يطرح صالح بلعيد فكرة حسن توظيف اللغات، فيقول: "أعتقد أن المسألة اللغوية عندنا تكون معالجتها الناجحة في إطار تطبيق مفهوم التعددية المندمجة، أي الاندماج المؤسساتي الحامي للممارسة الحقوق اللغوية والثقافية للمجتمع، لا تطرح فيها الخيار اللغوي الأجنبي، ولا تكون لغة من اللغات محل تفاضل، بل التوظيف هو الذي يضع التصنيف بصورة عفوية"²⁴.

هذه بعض السبل التي نرجو بها إصلاح الحال وإن كانت غير كافية ولكن من المؤكد أن المقصود هو أن يعمل كمال الجد في الطلب حتى ينتهي إلى ما يرجى، مما يعني أن الاجتهاد على حفظ ثقافتنا وهوتنا ووحدتنا واجب، وتقوية لغتنا بتجنب كل ما يضعفها أو يهددها من ازدواجية أو تعددية لغوية أداة ذلك وشرطه، وما يتم به الواجب فهو واجب .

هوامش البحث:

1 - نقلا عن: أحمد أبو زيد، حضارة اللغة، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الأول، وزارة الكويت، 1971، ص 31

2 - مالك بن نبي، مشكلات الحضارة من أجل التغير، الطبعة الرابعة، دار الفكر، دمشق، 2005، ص 59.

3 - محمد عابد الجابري، إضاءات وشهادات، مجلة مواقف، العدد الخامس عشر، 2003، ص 56.

4 - المرجع نفسه، ص 57.

5 - نقلا عن: بوزيد ساسي هادف، الازدواجية اللغوية في الجزائر المستقلة. دراسة سوسولوجية:

<http://brahmiblogspotcom.blogspot.com> 19/09/2017

6 - الموقع نفسه.

7 - محمد علي الخولي، الحياة مع لغتين، الطبعة الأولى، جامعة الملك سعود، الرياض، 1988، ص 18/17

8 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر/ بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، 2002، ص 137.

9 - صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم، م المجلس الأعلى للغة العربية، العدد 19، الجزائر، 2007، ص 07.

10. مالك بن نبي، مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع نفسه، ص 142.
11. بوزيد ساسي هادف، الازدواجية اللغوية في الجزائر المستقلة. دراسة سوسولوجية:
<http://brahmiblogspotcom.blogspot.com> 19/09/2017
12. باديس لهويل، نور الهدى حسني، مظاهر التعدد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية:
<http://revue.ummto.dz> 26/09/2017
13. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع نفسه، ص 139.
14. المرجع نفسه، ص 141.
15. المرجع نفسه، ص 140/139.
16. المسيري عبد الوهاب، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد مشكلة المصطلح، الطبعة الثالثة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998، ص 70
17. زبدي الخداوية، اللغة العربية وترسيخ الهوية الوطنية في ظل التعدد اللغوي. أنظر:
<http://revue.ummto.dz> 20/09/2017
18. محمود السيد، التمكين للغة العربية، مجلة اللغة العربية، المجلد 83، دمشق، 2008، ص 304/303
19. احمد أبوزيد، حضارة اللغة، مرجع سابق، ص 31.
20. المرجع نفسه، ص 304/303.
21. المسيري عبد الوهاب، إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، مرجع نفسه، ص 84
22. باديس لهويل، نور الهدى حسني، مظاهر التعدد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية:
<http://revue.ummto.dz> 26/09/2017
23. سمير رفاص، إشكالية التعايش اللغوي في المجتمع الجزائري: <http://revue.ummto.dz> 19/09/2017
24. صالح بلعيد، الأمازيغية والعربية تكامل لا تصادم، مرجع نفسه، ص 17.